٨ ــ التحيّزات المعرفيّة

في الرؤية الغربية الحديثة للعالم

أ. فؤاد السعيد

يأتي هذا البحث في سياق التيار الفكري المعاصر الساعي نحو دحض وهم ما يسمى «بالنموذج الغربي» الذي يطرح عالميًا باعتباره النموذج الأرقى في مسار وحيد ممكن للتطور البشري ينبغي على كافة الحضارات تكراره واحتذاؤه.

ويقتضي التعامل العلمي مع الموضوع صياغة مفاهيم علمية أكثر تحديدًا في محتواها لإمكان الإحاطة بها وإحداث نوع من التقدم في فهم الإشكالية المطروحة بدلاً من استمرار التعامل مع تلك المفاهيم الفضفاضة من قبيل «النموذج الغربي» الذي يتسع ليشمل أطروحات كافة العلوم ومجالات الحياة الغربية: الطبيعة وما وراء الطبيعة والاجتماع وعلم النفس ونموذج التطور التاريخي وما وصل إليه من رؤية للعالم ونمط في الحياة.. إلخ.

وبناء على ذلك فإن البحث يحدد مجاله المعرفي ألا وهو مجال دراسات رؤية العالم «Weltanschaung» باعتبارها تلك الرؤية الكلية التي تعبر عن روح شعب ما في مرحلة تاريخية معينة والتي تضم العقائد والأحكام المختلفة المتعلقة بالمشكلات أو التساؤلات النهائية «Ultimate Question» التي تتصل بالإنسان ووجوده ومصيره وموقفه من الوجود ككل.

أما المصطلح الأساسي في البحث فهو «الرؤية الغربية الحديثة

للعالم» وهي تلك الرؤية التي تغلبت وسادت في أوروبا، ثم الغرب بعامة على أنقاض الرؤية السابقة عليها في العصور الوسطى.

ويهدف البحث أساسًا إلى الكشف عن المسلمات والمفترضات والمعايير والقيم المسبقة الخفية والكامنة وراء تلك الرؤية - التي لا تزال قائمة في خطوطها الأساسية حتى اليوم - وإبراز تحيزات وانحرافات منظورها في تحديد موقفها من الوجود، وبالتالي الصورة التي كونتها عن العالم والحياة، وهو ما ترتب عليه تلك الطريقة الغربية الحديثة في تناول كافة الموضوعات والأشياء في كافة مجالات الحياة وأنشطتها.

لقد أدت هذه التحيزات المعرفية إلى نمو فروع معرفية دون غيرها في الغرب.. لعل أهمها بلورة فلسفة في التاريخ تجسدت فيما يسمى «بفلسفة التقدم» التي تفترض مسارًا وحيدًا للتقدم ونموذجًا أرقى للحياة الإنسانية صالحًا لكافة الحضارات البشرية، وفي المقابل نجد غيابًا «لفلسفة الحضارات» تفترض - على العكس - أن لكل دائرة حضارية خصوصيتها في التطور التاريخي ورؤية العالم وموقفها المتميز من الوجود وهو ما يعني تعدد المسارات الممكنة للتقدم وتعدد النماذج الحضارية وليس أحاديتها.

أما النقطة الجوهرية في البحث فتتمثل في الكشف عن ذلك التحيز الكامن والمتمثل في استبعاد التجربة الغربية الحديثة لذلك المفهوم الأشمل وأقصد مفهوم «الموقف من الوجود» الذي يتطابق مع التعريف الأصلي لإصلاح رؤية العالم، كما نشأ في أحضان المدرسة التاريخية الألمانية والتي تفردت - لظروف عديدة - بتمثل خبرات ثقافية عديدة شرقية وغربية.. أقول استبعادها لذلك المفهوم الرحب واختزال مفهوم رؤية العالم ليقتصر على تكوين صورة للعالم المادي ومكوناته مما يجعله أقرب إلى مفهوم علم الكون Cosmology ومكوناته وهو ما يتضمن تحيزًا معرفيًا مضمرًا هو افتراض أن موقف الإنسان من الوجود لا يمكن أن يكون شيئًا آخر سوى السعي نحو معرفة ما هو ظاهر ملموس من الوجود فحسب، وفرض هذا الموقف على كافة الحضارات باعتباره الموقف الوحيد الممكن بالرغم من أن الحال ليس كذلك. كما أن القضية ليست بتلك البساطة.

ويمكن من خلال استقراء لخصوصيات العديد من الحضارات التاريخية إضافة إلى تتبع الجهود النظرية للقلة من المفكرين الذين تناولوا هذا الموضوع الشائك، يمكن أن نميز بين موقفين أساسيين ممكنين من الوجود يمثلان الطرفين المتطرفين في موقف الإنسان من الوجود على النحو التالي:

أولاً: الموقف المعرفي من الوجود

حيث تختزل علاقة الإنسان وموقفه من الوجود في معرفة هذا الوجود فقط سواء بالاعتماد على الحس أو على العقل كأداتين وحيدتين للمعرفة (الرؤية المعرفية الطبيعية ـ المادية للعالم والرؤية المعرفية المثالية للعالم) ويؤدي هذا الموقف إلى سيادة نظرة حتمية إلى العالم ونظرة للإنسان باعتباره مجرد وحدة تشابه الطبيعة المادية في تكوينها أو سيادة نظرة تفهم العالم من خلال نماذج عقلية مثالية يتم إسقاطها على الواقع.. المهم أن هذا الموقف يقصر العلاقة على معرفة العالم فقط.

ويبدو أن هذه النظرة وهذا الموقف هو الذي تغلب في المسار التاريخي للحضارة الغربية سواء في العصور الأغريقية والرومانية أو في العصور الحديثة والمعاصرة، وأن الرؤيتين المعرفيتين تبادلتا مواقع التأثير والسيادة من لحظة تاريخية لأُخرى دون خروج على الموقف المعرفي من الوجود.

ثانيًا: الموقف الحدسي ـ الصوفي ـ الجمالي من الوجود

وهو الموقف الذي يقول بمحدودية المعرفة الحسية أو العقلية كطرق للتواصل مع الوجود والعالم، وأن هذا الموقف الذي يكتفي بمعرفة العالم اعتمادًا على هذا الجزء البارد من العقل الإنساني فقط يؤدي إلى إفقار للإنسان وللجماعة البشرية، وفي المقابل ينبغي أن تقوم علاقة الإنسان وموقفه من الوجود على أساس الذوق الحدسي ـ الصوفي ـ الجمالي المباشر الذي يتوحد مع الوجود كله محققًا الإشباع الكامل للإنسان من خلال تمثله ـ وليس معرفته ـ للمعنى الماورائي للوجود.

ويبدو أن هذا الموقف الأعمق كان هو السمة المميزة لحضارات الشرق سواء في أقصاه حول الهند والصين أو في أدناه حول مصر والرافدين.

ما يهمنا التأكيد عليه في سياق هذا البحث وهذه الندوة هو توضيح أن الموقف المعرفي الغربي من الوجود ليس هو الموقف الوحيد أو الخيار الحضاري الوحيد المطروح أمام البشر.

وربما كان الهدف النهائي لهذا التوجه البحثي هو دراسة الموقف المتميز للحضارة الإسلامية والتي نجحت في خلق صيغة جديدة مبتكرة تمثلت في الموقف والتصور الإسلامي للوجود الذي تفوق على التوجه المعرفي الغربي والتوجه الجمالي الشرقي من خلال تجاوزهما واستيعابهما في صيغة أكثر تركيبًا وثراء تحتاج إلى الدراسة المتعمقة التي تخرج عن نطاق بحثنا الراهن وأهدافه (كان لبعض مفكرينا الإسلاميين شرف السبق في ولوج هذا الباب الصعب من الدراسة والتأمل أمثال سيد قطب ويوسف القرضاوي ومحمد باقر الصدر ومحمد عمارة.. إلخ).

ثم يسترسل البحث في مهمته الأساسية والمتمثلة في إبراز التحيزات والانحرافات المعرفية التي صاحبت سيادة الرؤية الغربية الحديثة للعالم والتي تكشف عن جزئية وفقر تلك الرؤية:

- فالعلاقة تتضمن معرفة العالم الظاهري الملموس فقط، وبالتالي ينتفي مبحث الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) من تلك الرؤية ومن هنا نشأت «الدنيوية».

- كما أن وصف هذا العالم وتفسيره يكتفي هنا بالعلل المادية القريبة فقط، وبالتالي ينتفي التساؤل الديني والفلسفي عن العلل البعيدة للوجود وعن ماهيته ومغزاه وغائيته مما يفقد حياة البشر معناها وغائيتها.

- وفي هذا الإطار تسود النظرة الجزئية للظواهر وتسود العلوم المتخصصة بل ويسود التخصص الدقيق في جزئيات محدودة وتنتفي الرؤية الكلية للوجود مما يفقر حياة الإنسان.

ـ كما أن العلاقة هنا هي علاقة بين الإنسان من ناحية وبين آخر غريب عنه هو هذا العالم المنفصل عنه، ومن هنا نشأ اغتراب الإنسان عن العالم وعن الوجود.

ـ ولأن العلاقة علاقة معرفة فقط وعلاقة انفصال واغتراب فقد كان أمرًا طبيعيًا أن تصبح علاقة عدائية، ذلك أن الهدف النهائي لإنسان الغرب الحديث تحدد في معرفة العالم وفهم قوانينه من أجل السيطرة عليه واستنزافه (بل والتهامه) وتدميره دون نظر للإخلال بالتوازن البيئي الطبيعي أو لحقّ الأجيال التابعة في ثروات الطبيعة.

ـ بل إن هذه العلاقة العدائية تنتقل لتحكم أيضًا علاقات البشر في ظل المبادئ التي تحكم الحياة الاجتماعية والسياسية في إطار هذه الرؤية للوجود: القوة، الصراع، الفردانية، المنفعة، الربح، الاستهلاك بلا حدود.. إلخ، وذلك في تجسيد واضح لذلك المنظور الذي نجده عند دارون كما نجده عند هوبس: الإنسان في حرب دائمة مع الآخرين.. وهو المنظور الذي أفضى إلى الاغتراب الاجتماعي والنفسي في الغرب.

... إلى آخر تلك التحيزات والانحرافات المعرفية التي تتجسد عند العديد من مستويات الحياة الغربية والتي لا يمكن كشفها وتفسيرها إلا بإرجاعها لتلك الرؤية الغربية الحديثة للعالم، وهو ما يحاول البحث إبرازه وتفصيله ومناقشته.

* * *